

للباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين كتب مختلفة في تاريخ الأدب العربي أدت كثيراً من الفائدة والنفع منذ ظهورها ، غير أن من الحق أنه ليس بين هذه الكتب ما يبسط الحديث في أدبنا وأدبائنا على مر التاريخ من الجاهلية إلى العصر الحديث بسطاً مفصلاً دقيقاً . وأغزر هذه الكتب وأحفلها مادة كتاب «تاريخ الأدب العربي ، وهو دائرة معارف جامعة ، لا تقتصر على الحديث عن شعرائنا وكتابتنا ، بل تفيض في الكلام عن فلاسفتنا وعلماؤنا من كل صنف وعلى كل لون ، مع استقصاء آثارهم المطبوعة والمخطوطة في مشارق الأرض ومغاربها والإشارة إلى ما كتب عنهم قديماً وحديثاً. وهذه العناية من وصف التراث العربي جميعه جعلت بروكلمان لا يعنى عناية مفصلة ببحث العصور والظواهر الأدبية ولا يبحث شخصيات الأدباء بحثاً تاريخياً نقدياً تحليلياً، إذ شغلته عن ذلك مواد كتابه المتنوعة الكثيرة وإذن فأنا لا أبالغ إذا قلت إن تاريخ أدبنا العربي يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسطة تبحث فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر كما تبحث شخصياته الأدبية بحثاً مسهباً ، بحيث ينكشف كل عصر انكشافاً تاماً ، بجميع حدوده وبيئاته وآثاره وما عمل فيها من مؤثرات ثقافية وغير ثقافية ، وبحيث تنكشف شخصيات الأدباء انكشافاً كاملاً ، والفنية وقد حاولت أن أنهض بهذا العيب، وأنا أعلم ثقل المئونة فيه ، فإن كثيراً من الآثار الأدبية القيمة لا يزال مخطوطاً لما ينشر ، وكثيراً مما نشر في حاجة إلى أن يعاد نشره نشرًا علمياً . وهناك بيانات أدبية يغمرها غير قليل من الظلام، إما لقلّة ما بين أيدينا من تراثها الأدبي ، وإما لأن الباحثين لم يكشفوا دروبها ومناجمها كشفاً كافياً . يضاف إلى ذلك أن تحليل آثار الأدباء وتقويمها ليس عملاً سهلاً ، ولأنها تتألف من معان وأساليب جميلة ، وهي لا تخضع خضوعاً مطلقاً لقواعد العلم وقوانينه، حقاً تخضع للطريقة العلمية ، ولكن باستمرار تظل فيها جوانب خاضعة للذوق ونفاذ البصيرة والإحساس المرهف . وذلك كله مما يضاعف الجهد على من يريد تأريخ أدبنا العربي تاريخاً مفصلاً دقيقاً على اختلاف عصوره وتفاوت بيئاته ، إذ يرى أمنيته في إتقان عمله بعيدة عسيرة، فيجد ويلح ، ويمضى في الجيد والإلحاح، مؤمناً بأنه لا يقول الكلمة الأخيرة فيما يبحثه ، إذ البحث الأدبي لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله ومعنى ذلك أن هذا الجزء من تاريخ أدبنا العربي الخاص بالعصر الجاهلي والذي ستتلوه أجزاء أخرى تتناول بقية عصور هذا التاريخ – لا أزعّم أنه يحمل إلى القراء الصورة الأخيرة لهذا العصر ، كما لا أزعّم أن الأجزاء التالية ستحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة . وإنما أزعّم أن هذه الصورة هي التي استطعت رسمها مع ما بذلت من جهد واصطنعت من نهج ، وتحريت من دقة ،